الفصل الاول

الشريف الرضي

عصره او القرن الرابع الهجري

— تمهيد —

للقرن الرابع الهجري صورتان متباينتان تناقض إحداهما الأخرى فأولاهما قبيحة مشوهة تعافها النفس وينقبض منها الصدر لايسعنا إلا أن ننظر اليها بأفئدة مملوءة بالأسى ، مفعمة بالحزن لما أصاب الشعوب الشرقية من نكبات جسام وما كان بينها من قتال وخصام وفرقة وانقسام . فنبحث في التاريخ السياسي لهذا القرن فلا نجد غير فتن واضطرابات وقلاقل وثورات وعروش تقوم ثم تهوى ودول تنشأ ولاتلبث أن تزول ...

فاذا ماتركنا هذه الصورة المحزنة وانتقلنا الى الصورة الأخرى ألفيناها جذابة شائقة تأخذ بمجامع القلوب . وجدنا تقدما فكريا مطردا وحركة علمية واسعة المدى . فهذا العصر كما يرى القارىء قد جمع بين الرقي والانحطاط ، بين التقدم والتأخر .

الحالة السياسية

(١) الخلافة العباسية

انحلت الامبراطورية العربية انحلالا تاما ولم يبق للخليفة العباسي إلا ذكر اسمه في الخطبة ومع ذلك فقد كان مهددا بالخلع أو القتل أو الاثنين معا . وقامت على انقاض هذه الامبراطورية إمارات بعضها عربي وبعضها فارسي . ففي شمال افريقية قامت الدولة الاغلبية ثم الأدريسية ثم الفاطمية واستقل آل طولون ثم آل الأخشيد بمصر ثم بسطوا سلطانهم على بلاد العرب وبلاد الشام ثم حل محلهم الفاطميون . وحكم آل حمدان الموصل وحلب وديار بكر والجزء الشمالي من بلاد الشام . وفي طبرستان قامت الدولة العلوية وفي همذان قامت الدولة الصفارية وفي خراسان قامت الدولة السامانية وتغلب بنو بويه في منتصف هذا القرن على فارس والعراق واتخذوا بغداد مقرا لملكهم .

* * *

ولقد كان هؤلاء الملوك في نزاع مستمر وحروب دائمة فضعف أمرهم وانحط شأنهم وسقطت هيبتهم وتلاشت قوتهم . وكانت النتيجة الأولى

لهذا الضعف طمع الروم فى أملاك المسلمين وشنهم الغارة تلو الغارة على كثير من الاقاليم . فكان القرن الرابع قرن حروب بين الروم والمسلمين ظفر الروم فى أكثرها بينما جيوش المسلمين تقتتل ويغير احدها على الآخر وكانت النتيجة الثانية لهذا الضعف طمع الاوربيين فى الشرق وخيراته فحملوا عليه حملاتهم الهائلة وانتصروا على الشرقيين بفضل اتحادهم وصدق عزيمتهم وانهزم هؤلاء لما كانوا عليه من فرقة وانقسام . ولولا بنو حمدان فى القرن الرابع وبنو ايوب فى القرن السادس لتمكن الاوربيون من اكتساح الشرق الادنى بأكمله والقضاء على الاسلام قضاء مبرما .

ولد الشريف الرضى سنة ٣٦٩ هـ وتوفى سنة ٤٠٦ هـ فكأنه عاش خمسة وأربعين عاما أدرك فى خلالها ثلاثة خلفاء هم : المطيع لله والطائع لله والقادر بالله . وفى أيام هذا الخليفة توفى شاعرنا . ولكي ندرك الحالة السياسية فى ذلك العصر يجب علينا أن نستعرض الحوادث التى وقعت فى عهد هؤلاء الخلفاء متوخين فى ذلك الايجاز .

أول مايلفت نظر الباحث فى تاريخ هذا العصر هو كثرة الفتن التى كانت تقع بين الاتراك والديلم فى بغداد وما كان يترتب عليها من سفك الدماء وتخريب الاحياء الآهلة بالسكان وتعريض الناس للهلاك . فما كان يمضى عام حتى تقوم المعارك الحامية بين هذين العنصرين وتستمر أياما

فتسود الفوضي ويعم الاضطراب ويختل الامن وتنتشر اللصوصية فتمرض المعامل التجارية للنهب والسلب والدور للحرق والتدمير .

في عصر المطيع لله هجم الروم على بلاد الشام ودخلوا طرابلس بغير قتال فأحرقوها ثم ساروا مستولين على القلاع والحصون التي في طريقهم حتى دخلوا حمص وكان أهلها قد انتقلوا منها وأخلوها فأحرقها الروم كما أحرقوا طرابلس من قبل . ثم قصدوا بلدان الساحل فأوسعوها نهبا وتخريبا . ودخلوا المساجد بخيلهم ونقلوا الى بلادهم ثمانية عشرة منبرا وبقي الروم في بلاد الشام أكثر من شهرين يخربون المدن ويدمرون القرى ، يغنمون الغنائم ويأسرون الآلاف الفتيان والفتيات ويرسلونهم إلى بلادهم ويحولونهم من الديانة الاسلامية الى الديانة المسيحية فعظمت مكانة الروم في أعين المسلمين وارتفعت منزلة امبراطورهم فقصده فريق كبير من العرب الضاربين بنواحي الشام وتركوا الدين الاسلامي واستبدلوا به الدين المسيحي . فازدادت شوكة الروم فأرسلوا حملة الى نصيبين استولت عليها بسهولة ودخلتها دون مقاومة وأعملت السيف في رقاب أهلها وأشعلت النيران في أحيائها ونهبت ما فيها من أموال ونفائس . حدث كل ذلك والمسلمون ساهون لاهون ينظرون الي ما يقع عليهم نظر المغشى عليه من الموت .. الخليفة ضعيف لاحول له ولاقوة وعز الدولة بختيار أحد من جلسوا

على عرش آل بويه يقضي نهاره في الصيد وليله بين الكاس والطاس حيث الجوارى الحسان والفاتن من الغلمان .

* * *

تحرك العامة في بغداد وأشفقوا على أنفسهم وعلى بلادهم من غارات الروم المتواليـة فاجتمع منهم خلق كثير وساروا الى دار الخلافة وأرادوا الهجوم على الخليفة المطيع لله فحال الحراس بينهم وبين ما يشتهون وأغلقت الابواب فى وجوههم فأسمع المتجمهرون الخليفة ما يقبح ذكره على حد تعبير ابن الاثير .

ثم خرج نفر من أعيان بغداد ووجوهها قاصدين عز الدولة بختيار وهو المالك الفعلي لبلاد العراق . فوجدوه فى احدى نواحى الكوفة يقضي وقته فى الصيد فاستصرخوه واستنجدوه ضد الروم الذين كانوا يهددون المسلمين باكتساح بلادهم . فوعدهم بختيار بصد الروم وارجاعهم الى بلادهم وأخذ يجمع المال اللازم للحرب . وبعث الى المطيع لله يطلب منه مالا لمواصلة الاستعدادات الحربية وتموين الجيوش بالاسلحة والذخائر وغيرها من معدات القتال . فأجاب المطيع بقوله « ان نفقات الجيوش والدفاع عن امر المسلمين تلزمنى اذا كانت الدنيا فى يدي أما اذا كانت حالى هذه فلا يلزمنى شيء من ذلك وانما يلزم من البلاد فى يده . وليس لى الا الخطبة

فأن شئتم ان اعتزل « فعلت . » ولكن الخليفة المسكين — خليفة النبي — أضطر تحت التهديد والوعيد الي دفع اربعمائة الف درهم جمعها بعد أن باع ملابسه وأثاث بيته — الي بختيار الذى أخذها وانفقها على ملذاته الخاصة وأهمل أمر الحرب . . . . ! ! !

* * *

ما كاد الستار يسدل علي هذا الفصل المحزن حتى خلع المطيع لله لمرض عضال حل به وتولي بعده أبنه الطائع لله وفى عهده وقع من الحروب والفتن مالا يقل عما حدث فى أيام سلفه . وكان من عادة ملوك ذلك العصر أن الواحد منهم اذا اعوزه المال عمد الى وزيره وقبض عليه وألقى به فى السجن أو قتله ثم صادر أملاكه واستصفي أمواله ووضع يده علي كل مايملكه هذا الوزير من ذهب وفضة ومتاع وعقار . واتفق ان كان الجالس على عرش البويهيين في بغداد أيام الطائع لله هو بهاء الدولة . ولقد احتاج هذا الى كثير من المال لتسديد مرتبات جنوده الذين أوشكوا أن يثوروا ضده فولى وجهه شطر وزيره الامين وخادمه المخلص سابور فقبض عليه وقتله ثم أخذ ما كان يمتلكه هذا من أموال لم تجد بهاء الدولة شيئا لقلتها وعدم وفائها بالمطلوب . ماذا يعمل بهاء الدولة وجنده قد نضب معين صبرهم وأصبحوا فى حالة تذمر وسخط ينذر بقيام ثورة قد تذهب بعرشه ؟ ؟ ؟ لقد حار

الرجل في أمره ولـكن أحد المقربين اليـه حسن له القبض على خليفة النبي والاستيلاء على مافى قصر الخـلافة من أموال ونفائس وهون عليـه الامر فاقتنع بهاء الدولة بهذه الفـكرة وشرع في تنفيذها . فأرسل الى الطائع يسأله الاذن فى الحضور في خدمته ليجدد العهد به فأذن له الخليفة فى ذلك وجلس له كما جرت العـادة . فأقبل بهاء الدولة في جمع كثير من الديلم فلما دخل قبل الارض وجلس على كرسى فـدخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره و خليفة النبي يستغيث و يستنجد ولا مغيث ولا منجد . وعلى أثر هذا نهب الديلم القصر وأخذوا مابه من مال ومتاع واعتدوا على من فيه من نساء وأطفال أشنع اعتداء . وكان الشريف الرضى اذ ذاك حاضرا فى مجلس الطائع ورأى بعينى رأسـه ماوقع ففر هاربا طالبا النجـاة بنفسه فتمكن من الفرار دون ان يقبض عليه أحد . وله فى ذلك قصيدة طويلة جاء فيها

أعجب لعسكة نفسى بعد ما رميت ... من النوائب بالأبكار والعون

ومن نجائى يوم الدار حين هوى ... غيري ولم أخل من حزم ينجيني

مرقت فيها مروق النجم منكدرا ... وقد تلاقت مصاريع الردى دوني

وكنت اول طـلاع ثنيتهـا ... ومن ورائى شر غير مأمون

من بعد ما كان رب الملك مبتسما ... الى ادنيه فى النجوى ويدنيني

أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه لقد تقارب بين المز والهون
ومنتظر كان بالسراء يضحكني ياقرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية قد ضل ولاج أبواب السلاطين

قبض على الديلم خليفة النبي وبذلك أسدل الستار على الفصل الثاني من تلك الرواية المحزنة التي شهدها الشريف .

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن يولي بهاء الدولة وجهه شطر أحد الأمراء العباسيين لأقامته خليفة فلم ير من يصلح لذلك غير القادر بالله الذي كان غائبا عن بغداد ومقيما بناحية البطيحة فبعث اليه يشير عليه بالحضور الى بغداد فحضر وكان بهاء الدولة أول من بايعه بالخلافة الا أن كثيرا من الجند قاموا بثورة ضد القادر بالله ولكن بهاء الدولة تمكن من تسكين خواطر الثائرين وارضائهم فلم يسعهم الا الاعتراف بالأمر الواقع .

كان الشريف الرضي يؤمل أن ينصب خليفة على المسلمين بعد القبض على الطائع لله ولكن آماله لم تتحقق لأسباب سنبينها في غير هذا المكان فحزن حزنا شديدا ومات وهو في ريعان الشباب فكانت وفاته خسارة عظيمة أصيب بها العلويون .

(ب) الدولة البويهية

ذكرنا آنفا ماصار اليه أمر الامبراطورية العربية من انحلال وانقسام . وذكرنا كذلك الدول التي قامت على انقاض الامبراطورية العظيمة ومن بينها الدولة البويهية التي بسطت سلطانها على فارس والعراق واتخذت بغداد قاعدة لها . ومر بنا من ملوكها عز الدولة . بختيار ثم بهاء الدولة . ونريد الآن أن نتكلم عن أصل هذه الأسرة ومنشئها وكيفية وصولها الى هذه الدرجة الرفيعة لنوفي البحث حقه .

على أننا نحب أن نتعرض للسياسة العامة التي جرى عليها الخلفاء العباسيون منذ القرن الثالث الهجري تلك السياسة الخرقاء المبنية على شيء من الجهل وقصر النظر والتي مزقت وحدة المسلمين ثم مزق وهوت بهم الى أسفل دركات الانحطاط وانتهت بهم الي الذل وسوء المصير .

نظام الاقطاع هو السياسة التي سار عليها خلفاء النبي الذين لاهم لهم الا الانغماس في الشهوات والحصول على أكبر قسط من اللذات نظام الاقطاع هو السياسة التي اتبعها خلفاء النبي الذين كانوا يقضون أوقاتهم في معاقرة بنت الحان ومغازلة الحسان وسماع الفتيان . يقطع الخليفة أحد قواده إقليما من الأقاليم ويترك له الحرية التامة في إدارة شؤون هذا الأقليم مقابل جزية يبعث بها إلى بغداد . على أن هؤلاء الحكام كانوا يمتنعون عن

إرسال هذه الجزية ويقطعون كل علاقة تربطهم بمقر الخلافة . هذه نبذة موجزة عن السياسة التي كانت متبعة في ذلك الحين أتينا بها تمهيدا للكلام عن آل بويه الذين تسنموا الملك عن طريق الاقطاع .

يلاحظ المطالع لتاريخ هذا العصر أن كل ملك من الملوك الذين ظهروا اذ ذاك . عدا القليل منهم — كان من أسرة خاملة وأصل وضيع . وأنما وصل إلى ما وصل اليه بفضل ذكائه ودهائه وحسن سياسته . وأمثال ذلك ابن طولون وكافور الاخشيد وعدا هؤلاء كثيرون . وكان بعض هؤلاء الملوك يجتهد في اقناع الشعب أن من يحكمهم ليس من عامة الناس وانما هو من بيت مجد ومن نسل ملوك استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب.

سموا بالشمس هاماتهم وبنو أبياتهم بالشهب

هذا هو لسان حال بعض الملوك الذين عاشوا في ذلك العصر والذين وجدوا من المؤرخين من يخلق لهم الانساب والأحساب نظير عرض زائل يتناوله فيكذب على الناس وعلى التاريخ . وأمثلة ذلك كثيرة يتبينها الباحث عند دراسته لملوك الطوائف بالاندلس ولحكام شمال افريقية .

ولم يعدم البويهيون من يرجع نسبهم الى بهرام جور من ملوك العجم . قال بذلك ابو اسحاق الصابيء . وجاراه في ذلك بعض المؤرخين وخالفه البعض الاخر .

ومهما يكن من امر هؤلاء البويهيين فأنهم عجم وليسوا ديلما إنما سموا بذلك لانهم سكنوا بلاد الديلم . ورأس هذه الاسرة هو ابو شجاع بويه الذي كان يشتغل بصيد السمك . دخل ابناؤه الثلاثة «علي والحسن وأحمد» في خدمة مرداويج أحد قواد الفرس الذين استقلوا بناحية طبرستان وجرجان . وكان بنو بويه من أجناده الامناء وأعوانه المخلصين . فعظمت منزلة اكبرهم وهو علي عنده فولاه الكرخ ثم امتلك هذا قطعة من بلاد فارس ولم يقتنع بذلك بل كتب الى الخليفة الراضي يسأله ان يمنحه فارس كلها مقابل جزية سنوية يرسلها اليه على أن يبعث إليه الخليفة بخلعة السلطنة والمنشور . فأجابه الراضي إلى طلبه جريا وراء نظام الاقطاع الذي تكلمنا عنه .

لم يبق للخلافة العباسي بعد ذلك إلا بغداد والكلمة العليا فيها للعنصر التركي . على ان هذه لم تسلم من أيدي البويهيين فقد طمع فيه علي السالف الذكر ولما رأى ما عليه الخلافة من ضعف أرسل أخاه أحمد بجيش دخلها من غير قتال وكان الخليفة اذ ذاك هو المستكفي بالله الذي رحب باحمد واحتفل به وخلع عليه الخلع تودداً إليه وقدم له الهدايا تقربا منه ولقبه معز الدولة ولقب أخاه عليا عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب كناهم وألقابهم على النقود . وكان المستكفي ضعيفا جدا أذله معز الدولة

وذهب قصره واعتقله في داره التي بقي فيها حتى توفي سنة ٣٣٨ هـ .

ولم يمض قليل حتى توفي معز الدولة فخلفه ابنه عز الدولة بختيار وكان هذا ضعيفا مهملا لما فيه خير الرعية سيء السيرة منغمسا في الشهوات فطمع فيه عضد الدولة ابن عم عز الدولة عم بختيار فسار بجيش كبير قاصدا العراق فالتقي بجيوش بختيار التي هزمت شر هزيمة وولت الادبار وعلي أثر هذا استولى عضد الدولة على بلاد العراق بأكملها واتخذ بغداد مقرا له .

ولما توفي عضد الدولة خلفه ابنه صمصام الدولة علي العراق وابنه شرف الدولة على فارس . ودارت الايام دورتها فوقعت خصومة بين الاخ واخيه ترتب عليها مسير شرف الدولة بجيوشه إلى العراق قصد محاربة أخيه صمصام الدولة . وكانت نتيجة هذا الحرب انتصار شرف الدولة الذي دخل بغداد وقبض علي أخيه وسجنه . ولم يلبث شرف الدولة ان مات فخلفه ابنه بهاء الدولة الذي مر بنا آنفا .

في وسط هذا الجو المضطرب المملوء بالمخاوف ، والمحفوف بالمخاطر ولد الشريف الرضي وفيه عاش وفيه مات .

الحالة الاجتماعية

ليس من العسير علينا أن نفهم الحالة الاجتماعية فى عصر الشريف الرضى بعد أن تكلمنا عن الحالة السياسية بوضوح وجلاء .

فانقسام الامبراطورية العربية الى دويلات صغيرة وقيام الحروب المستمرة بين هذه الدويلات يدلنا على أن الأمة الاسلامية قد تمزقت وحدتها وتفرقت كلمتها وأصبحت ولا علاقة بينها ولا رابطة ولا صلة . ويدلنا كذلك على أن هذه الأمة قد قضت ردحا من الزمن متخاصمة متقاتلة حاقدا بعضها على بعض . فبينما كان الروم يهاجمون بلاد الشام ويذيقون أهلها جميع أنواع العذاب ؛ ينهبون ويسلبون ويقتلون ويأسرون ويدخلون المساجد بخيلهم كان المسلمون يتقاتلون ويحمل بعضهم على بعض حملات متوالية . ومن الغريب أنهم لم يحاولوا لم شعثهم وتوحيد كلمتهم بأزاء الخطر الأوربى . بل بقوا على ما هم عليه من فرقة وانقسام

حتى دهمتهم أوربة المتحدة فانتصرت عليهم انتصارا مبينا فى الحرب الصليبية الاولي .

ولقد كان عجيبا لو لم يحدث هذا الانقسام الذى هو أمر طبيعى فى امبراطورية مترامية الاطراف جمعت شعوبا وقبائل تختلف فى اللغة والعادات والأخلاق والأمزجة والطباع والتقاليد حتى فى الدين ففيها السنى والشيعى والحنبلى والرافضي والخارجى . وكثيرا ماقامت الفتن ونشبت المعارك الدموية بين هذه الفرق فيعم الاضطراب وتسود الفوضى وتنتشر اللصوصية وتهدم دور وتدمر أحياء . فهذا الانقسام وهذا التنافر هما اللذان سهلا مهمة هؤلاء الذين اقتسموا تلك الامبراطورية العظيمة . ومن المدهش أن الواحد من هؤلاء المتغلبين كان يقوم بتحقيق أمنيته فيجند الانصار والاعوان ثم يخرج عليه احد أتباعه فينقسم هؤلاء الانصار الى قسمين قسم له وقسم عليه . وهذا شيء يدل علي أن الناس قد فقدوا فضيلة الثبات على المبدأ كما أنهم فقدوا الأمانة والاخلاص والوفاء .

* * *

ولا ريب في أن تعدد الزوجات كان من أهم الأسباب فى تفكيك عري المودة بين أفراد الاسرة الواحدة . فالرجل يتزوج امرأة فارسية ثم يتزوج أخرى رومية وينجب من كلتيهما أولادا ينشأ كل منهم متعصبا لأمه وعنصره

حتي لا يكاد الاخ يتفق مع أخيه فى شيء . وأكبر مثال لذلك النزاع الذى كان يقع بين أفراد آل بويه . فعضد الدولة الذى خلف أباه عماد الدولة في حكم إيران لم يكتف بملكه بل عمد الى محاربة ابن عمه عز الدولة بختيار واستولى على املاكه ودخل بغداد وقبض على أولاد بختيار وألقى بهم فى السجن . ولما مات عضد الدولة خلفه ابنه صمصام الدولة على العراق وابنه شرف الدولة على ايران فطمع شرف الدولة فى ملك أخيه فسار بجيوشه قاصدا العراق فاستولى عليها ثم دخل بغداد وقبض علي أخيه صمصام الدولة وزج به فى السجن وأمر بتعذيبه ثم ارسل اليه من سمل عينيه . هذا مثل من أمثلة تنافر القوم وتباغضهم . قلوب تغلي من الحقد غلى المراجل .

* * *

علمنا أن الامبراطورية العربية انقسمت الى دويلات صغيرة على رأس كل منها ملك لا تفتأ الحرب قائمة بينه وبين أحد من يجاوره من الملوك حتي يتغلب أحدهما علي الآخر . ولقد كان من الطبيعى أن يحتاج هذا الملك الى كثير من المال للقيام بنفقات تلك الحروب التى لا انقطاع لها فكان يعمد الى إثقال كاهل رعيته بالضرائب الفادحة وإلى القبض على الوزراء والأغنياء ومصادرة أملاكهم والاستيلاء علي أموالهم . فانتشر الظلم وعم

الخوف والهلع وأضحت الحياة عبئا ثقيلا لا يحتمل . وما كان المعري مسرفا ولا مبالغا في قوله

يكفيك حزنا ذهاب الصالحين معا
ونحن بعدهم في الأرض قطان

إن العراق وإن الشام مذ زمن
صفران ما بهما للملك سلطان

ساس الانام شياطين مسلطة
في كل مصر من الوالين شيطان

من ليس يحتمل خمص الناس كلهم
ان بات يشرب خمرا وهو سيطان

تشابه النجر فالرومي منطقه
كمنطق العرب والطائي مرطان

أما كلاب فأغنى من ثعالبهم
كأن أرماحهم في الحرب أشطان

متى يقوم امام يستقيد لنا
فتعرف العدل أجيال وغيطان

ولا حين يقول:

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فمدوا مصالحها وهم أجراؤها

* * *

والنتيجة الطبيعية لهذه الحروب الكثيرة وتلك القلاقل المستمرة هي خراب البلاد وخلوها من الايدى العاملة ومن مظاهر الحضارة ودواعي العمران. لقد كسدت التجارة واقفلت دور الصناعة وأقفرت الحقول من الزراعة وانصرفت الشعوب الاسلامية الى القتال والنزال فى الشرق وفى الغرب وفى كل بقعة اسلامية أخرى. فلا عجب اذا انقطعت موارد الرزق وأصبحت الرعية فى حالة بؤس شديد وفقر مدقع. وترتب على هذا كثرة وقوع المجاعات حتى أكل الناس لحوم الخيل والبغال والحمير بل كانوا ينصبون الاشراك فى الازقة والطرقات لصيد الاطفال وذبحهم ليتخذوا من لحومهم طعاما شهيا. ولقد بلغ بهم الجوع مبلغا عظيما حتى أكلوا الموتى.

والنتيجة المباشرة لتعاطى هذه الاغذية الغير صحية هى انتشار الاوبئة والطواعين التى كانت تفتك بالناس فتكا ذريعا.

* * *

على ان هناك فترات قصيرة كانت تمر على هذه الشعوب وهى فى حالة سلم فكانت تميل الى الترف والنعيم. تنغمس فى الشهوات وتسرف فى

ارتكاب الموبقات لايترك المرء لحظة تمر عليه دون أن يأخذ بحظ عظيم من اللذات . وكان الملوك أئمة لشعوبهم وقادة لهم فى كل انواع الفساد .

زعموا أن عز الدولة بختيار كان يملك غلاما على درجة عظيمة من الجمال وكان يميل اليه ميلا شديدا . وحدث أن وقع هذا الغلام أسيرا فى يد عضد الدولة فحزن عليه بختيار وامتنع عن لذاته ونسى ماحل به من نكبات ومصائب وهان عليه ضياع ملكه بجانب ضياع هذا الغلام . ولقد بلغ من تأثره انه صرح على رؤوس الاشهاد بأن فجيعته بذهاب هذا الغلام أعظم من فجيعته بذهاب ملكه . ثم سمع انه في جملة الاسرى فأرسل الى عضد الدولة يبذل له ماأحب من المال فى رده اليه فأعاده هذا دون تردد .

وبختيار هذا كان يقول الشعر ومن نظمه قوله

اشرب على قطر السماء القاطر
فى صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدي المزاج بكأسها
درا نثيرا بين نظم جواهر
من كف أغيد يستبيك اذا مشى
بدلال معشوق و نخوة شاطر
والماء مابين الغصون مصفق

مثل القيان رقصن حول الزامر

هذه هي أخلاق ملوك المسلمين في ذلك العصر . واذا علمنا أن الناس على دين ملوكهم أدركنا ما أصاب القوم في اخلاقهم من انحطاط عظيم

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم
فأقم عليهم مأتما وعويلا

انتشرت الخلاعة والمجون وكثر التغزل بالغلمان وتسابق القوم في انتهاك الحرمات وشربوا الخمر نهارا جهارا لا دين يردعهم ولا ضمائر تزجرهم ولا احساس يمنعهم ولا قانون يؤاخذهم .

واذا كنا نبحث للحقيقة وللحقيقة وحدها فأني أصرح في غير خوف ولا وجل بميلي الى القاء تبعة هذه الفوضى الاخلاقية على عاتق الشريعة الاسلامية ذلك لانها أباحت الزنا . فالرجل يستطيع ان ينكح أي امرأة تصادفه متى قالت له « وهبت لك نفسي » . ان قول هذه الجملة كفيل بجعل هذا الزنا الذي لاشك فيه حلالا في نظر الاسلام . ومن الناس لا يعرف هؤلاء المحامين الشرعيين ـ ذهبت النيران بهامهم ـ الذين يجلسون في مكاتبهم أمكنة خاصة يختلون فيها مع الجميلات من النساء اللائي يذهبن لنشؤون قضائية . ولا حرج على الازهريين وأشباه الازهريين من غشيان بيوت الدعارة السرية والعلنية ما دامت عبارة « وهبت لك نفسي » باقية وستبقى .

قلنا ان الاخلاق قد انحطت كثيرا في عصر الشريف الرضي . و ان شاء القارىء ان يقف على ما وصلت اليه من التدهور والفساد فما عليه الا ان يطالع في الجزء الثالث من كتاب يتيمة الدهر للثعالبي . فلقد حوى هذا الجزء من بذيء القول مالا يصدر في العصر الحاضر — عصر الفساد — كما يقولون — من اى كائن مهما تأنق في الوقاحة وتعمق في السفاهة . وما لا تستطيع اعظم المجلات الهزلية في الشرق او في الغرب نشر بيت واحد من الابيات الكثيرة التي وردت في الجزء المذكور وفي غيره من الكتب والدواوين . ومثال ذلك قول بن الحجاج وهو من الشعراء المجيدين .

إياك والعفة إياكا إياك أن تفسد معناكا
أنت بخير يا أبا جعفر مادمت صاب الايرنياكا
فنك ولو أمك واصفع ولو أباك إن لامك في ذاكا

وقول ابن سكرة الهاشمي وهو من ولد علي بن المهدي بن المنصور الخليفة العباسي

عشقت للحين قينة عطفت قلبي بالحسن كل منعطف
ورمت نيكاها فكيف به لولا سفاهي والبدع من حرفي
قلت ارفقي بالشريف فابتسمت عن لؤلؤ ما اعتزى الى صدف
عجبا وابدت كالقضيب عض له إيرى على بيضه من الأسف

وهذه الأشعار وأمثالها هي من غير شك صورة صادقة لأخلاق القوم في ذلك العصر.

* * *

ولقد كثر الغش والخداع وراجت سوق الرياء والنفاق ونفقت تجارة الوشاية والنميمة فانعدمت الفضيلة وانتشرت الرذيلة وسيطرت الأنانية على النفوس فكان القوم يضحون بشرفهم ودينهم في سبيل الحصول على متاع زائل.

الدين

إذا أردنا أن نتكلم عن الدين فى أى عصر من العصور وجب علينا أن نقسم حديثنا إلي قسمين . ففي القسم الأول نتكلم عنه من حيث هو عقيدة فى نفوس معتنقيه . وفى القسم الثانى نتكلم عنه من حيث هو علم تؤلف فيه الكتب وتوضع فيه الرسائل

وأظن أنه من السهل علينا أن نتكلم عن الدين من حيث هو عقيدة فى نفوس القوم بعد ان تكلمنا عن الحالة الاجتماعية ووقفنا علي ما أصاب الاخلاق من انحطاط وفساد

نستطيع أن نقول إن الناس كانوا فى شك عظيم من أمر دينهم فرجال الدين يظهرون غير ما يبطنون وخلفاء النبي فى حقيقة الدين يرتابون ولكنهم حريصا على جاههم وحبا فى المحافظة على سلطانهم يظهرون أمام الناس بالتقوى والورع بينما خلفاء النبي أنفسهم يرتكبون فى قصورهم الموبقات وينتهكون الحرمات . خلفاء النبي يشربون الخمر جهارا ليلا ونهارا ولا

يتصفحون عن اتيان الغلمان ولا يقلعون عن القبض على وزارئهم وكتابهم وقتلهم أو القائهم فى السجن ثم يستولون على أموال هؤلاء الوزراء وأملاكهم وما ملكت أيمانهم

ولم يقتصر الشك على رجال الدين والخلفاء بل تعداهم الى كل فرد تقريبا. أجل لقد انتشر الالحاد بين الناس انتشارا يبعث على الدهشة ويثير الاعجاب. ويرى الباحث ذلك واضحا فى كثير من أقوال شعراء هذا العصر وكتابه. ومثل ذلك قول المعرى

ولا تحسبن مقال الرسل حقا ولكن قول زور سطروه
وكان الناس فى عيش رغيد فجاءوا بالمحال فكدروه

وقوله

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

وقوله وفيه تعريض بالاسلام

تلوا باطلا وجلوا صارما وقالوا صدقنا فقلنا نعم

وأنت ترى الاستخفاف بالدين وأحكامه واضحا فى قول ابن الحجاج

اسقنى الخمرة التى نزلت فيـ ـها على القوم آية التحريم
أسقنيها فانـنى انـا والقـ ـس جميعا بنوها فى الجحيم
ثم قل للشمال من أين يا ريـ ـح تحملت روح هذا النسيم

أترى الخضر مر لي فيك أم جز ت برضوان فى جنان النعيم

وفي قوله

يقول قوم أبصروني وقد تلفت ما بينهم سكرا
قم فالحق الظهر ولو ركعة فالناس قد صلوا بنا العصرا
فقلت ما أحسن ما قلتم أقوم حتى الحق الظهرا

(الظهر فى البيت الأخير بفتح الظاء)

وأقوال الشعراء التى تنم على الاستهزاء بالدين وانكاره كثيرة لا يسمح المقام بايرادها فنكتفى بما اسلفنا . وكانوا ينضجرون من شهر رمضان ويتأففون منه . يتبين لنا ذلك جليا فى رسالة بعث بها ابن العميد الى أحد أصدقائه وقد جاء فيها « كتابى جعلنى الله فداك وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان وفى جهد ونصب من شهر رمضان وفى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم » ثم قال فى نفس الرسالة « وأسأله أن يعرفنى فضل بركته ويلقينى الخير بقى أيامه وخاتمته ، وأرغب اليه فى أن يقرب على القمر دوره وينصر سيره ويخفف حركته ، ويعجل نهضته وينقص مسافة فلكه ودائرته ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد على غرة شوال فهى أسر الغرر عندى وأقرها لعينى ، ويسمينى النهرة فى قفا شهر رمضان »

على أن الصيام عادة هندية قديمة اقتبسها الاسلام بعد أن أدخل عليها شيئا من التهذيب ، وهو ضار بالصحة لأنه تغيير فجائى لنظام المعيشة اليومية . .

ويلاحظ الباحث عن الحالة الدينية فى ذلك العصر أنه قلما يظهر رجلا ويدعى النبوة حتى يلتف حوله المؤمنون به والمؤيدون له حتى ابن الشلمغانى الذى أدعى الربوبية وطعن فى النبي لم يعدم من يلتف حوله وينتصر له . لقد ظهر الرجل وما كاد يعلن عن نفسه ، يجاهر بدعوته حتى اجتمع حوله كثير من العظماء واعتنقوا تعاليمه . ومن بين هؤلاء العظماء الحسين بن القاسم وزير المقتدر بالله . وهذا لا يحدث الا فى أمة داخلها الشك فى عقيدتها وأصبحت لا تقيم لتلك العقيدة وزنا . ولعل أكبر دليل نقدمه للقارىء بعد تلك الادلة التى قدمناها والبراهين التى سردناها هو انضمام قبيلة من عرب الشام الى قيصر الروم بعد أن تركت الدين الاسلامي واعتنقت الدين المسيحى :

فالدين الذى أتى به النبي قد أصبح فى القرن الرابع الهجرى أثرا من الآثار لا أكثر ولا أقل . ولم يبق منه الا لفظه وبعض أحكامه التى تبيح للناس الزواج والطلاق وترشدهم الى نظام الوراثة . هذا هو كل ما بقى من الدين ، بل ان أشد الفرق الاسلامية بأسا وأكثرها عددا وأوسعها

نفوذا أباحت اللواط وأوجبت قتل الغلام الذى يمتنع علي من يريد الفجور به كما أباحت إنكاح البنات والأخوات وشرب الخمر .

واذا علمنا أن الناس فى ذلك العصر كانوا يسيرون على قاعدة « الغاية تبرر الوسيلة » وجب علينا الا ندهش إذا رأينا قوما يتعصبون للدين ويذودون عنه طالما عاد عليهم من وراء ذلك خير وجاءتهم منفعة . وان فشلوا فى اتخاذ الدين وسيلة للكسب وطريقا الى نيل المارب اجتهدوا فى تحويره وتأويله فان استعصى عليهم ذلك تركوه وراء ظهورهم ناظرين اليه نظرة احتقار وازدراء .

هذا رجل يريد أن يتخذ الدين وسيلة للحصول على ما يبتغيه فيزعم أنه يدعو الى امام من آل البيت وما هى الا عشية وضحاها حتى التفت حوله الجموع الهائلة وتمكن هذا الرجل من اقامة دولة القرامطة فى البحرين.

واقدمار هؤلاء القرامطة الى مكة وأعملوا سيوفهم فى رقاب الحجاج الأبرياء وملؤوا زمزم بأشلائهم ثم أغاروا علي الكعبة واقتلعوا الحجر الأسود عنها وحملوه معهم الى البحرين ثم أغاروا على بلاد الشام وارتكبوا فيها من الفظائع ما تشمئز منه الانسانية .

لسنا نشك فى أن الدين الذى أتى به محمد قد قضي نحبه فى ذلك العصر ولسنا نرتاب فى أن المسلمين قد وصلوا الى حالة دونها حالة العرب

أيام الجاهلية . والا فما هذا النزاع وما هذا الخصام وما هذه الفرقة وما هذا الانقسام وما هذه الحروب المستمرة وما هذا التنافر والتدابر وما هذا التطاحن والتقاتل وما هذه القلاقل وهاتيك الاضطرابات وما هذه الفتن والثورات وما هذه الانانية التي استولت على النفوس وطغت على كل شيء وما هذا الغش وما هذا الخداع وما هذا المكر وما هذا النفاق وما هذا التملق وما هذا الرياء وماهذه الخمر التي تشرب بشراهة وماهذا الاسراف في الشهوات وما هذا التنافس في ارتكاب الموبقات وما هذا التسابق في انتهاك المحرمات وما هذا الاعتداء على الأعراض وما هذا الاقبال على الغلمان ؟؟؟؟؟

أليست هذه هي الاشياء التي أتى الاسلام لازالتها والقضاء عليها فنجح نجاحا تاما عندما كانت النفس الاسلامية مأخوذة اقتنعت بأنها خلقت لعبادة اله واحد وانها تعيش لرفع كلمة الله والجهاد في سبيل الدين وأنها تموت على هذا الدين . ولكن الدين الاسلامي نفسه فشل فشلا تاما في القضاء على هذه النقائص التي ذكرناها في القرن الرابع اذ كانت النفس الاسلامية تريد أن تستأثر بكل شيء وتنفرد بكل شيء وتحصل على كل شيء .

سيغضب الذين يسيرون على قاعدة « اذكروا محاسن موتاكم علينا غضبا شديدا وربما وجهوا الينا كثيرا من الشتائم والسباب ورمونا بالكفر

واتهمونا بالالحاد. ونحن لا يهمنا هذا أو ذاك انما يهمنا شيء واحد وهو اظهار الحقيقة التي هي فوق كل اعتبار.

***

تكلمنا عن الدين من حيث هو مظهر في نفوس المسلمين والان ننتقل الى الكلام عنه من حيث هو علم يكتب فيه الكاتبون ويبحث فيه الباحثون.

لم يعرف العرب أيام النبي غير القرآن والحديث فأقبلوا عليهما يدرسونهما ويستنبطون منهما الاحكام ويصدرون الفتاوى. وظلوا كذلك طيلة أيام أبي بكر وعمر وصدرا من خلافة عثمان. وفي أيام هذا الخليفة ابتدأ المسلمون يختلطون بغيرهم من الامم كالفرس والروم والقبط فتأثر الشكل العلمي للأسلام. وظهرت مقالات لم يألفها المسلمون من قبل. وفي ايام بني أمية كانت تقام بمساجد البصرة مناظرات عظيمة يشتد فيها الجدال ويكثر النقاش وتختلف الآراء وتتباين الافكار. ففريق يقول بخلود فاعل الكبيرة في النار وفريق يقول غير هذا. واختلف المسلمون في التوحيد والوعد والوعيد فترتب على ذلك انقسام المسلمين الى أقسام عدة هي الأشعرية والكرامية والمجسمة والمعتزلة والجبرية والمرجئة والوعيدية. وهناك قسمان آخران وهما الشيعة والخوارج. ومن هذه الاقسام الرئيسة

ظهرت فرق لا عدد لها نذكر منها الواصلية والهذيلية والنظامية والخابطية والبشرية والمعمرية والمزدارية والهشامية والجاحظية والجهمية والنجارية والضرارية والأزارقة والنجدات والعاذرية والمجاردة والصلتية والحمزية والميمونية والمكرمية والمعلومية والمجهولية والكيسانية والمختارية والباقرية والافطحية والاسماعيلية والباطنية والاثنى عشرية والسليمانية والصالحية والمنصورية والخطابية والكيالية واليونسية والنصرية والاسحاقية وغير هذه مما لا يتسع المقام لذكره فنكتفي بما أوردناه .

ولقد كانت هذه الفرق لا تملك إلا الدليل والبرهان يوم أن كانت الخلافة قوية السلطان عزيزة المكان . ولكن لما ضعف أمر الخلافة وتقلص نفوذ الخليفة العباسي عمدت هذه الفرق إلى السيف فاتخذته وسيلة لتحقيق ما ربها فقامت الدولة الفاطمية في شمال افريقية وامتد ملكها فشمل مصر وبلاد العرب والجزء الجنوبي من بلاد الشام . وقامت الدولة العلوية في طبرستان وانشأ الزيدية دولة في بلاد اليمن . ولقد كثرت المعارك الدموية بين السنية والحنابلة وبين السنية والشيعة في بغداد .

* * *

بينما كانت هذه الفرق السياسية تتسابق في تحقيق أمانيها بحد السيف . كان العلماء والباحثون يضعون الكتب الدينية المختلفة ويتناولون القرآن

بالتفسير والشرح فكتب الجاحظ فى اعجاز القرآن ووجوهه. وكان النظام لا يرى أن القرآن معجز لبلاغته وأن العرب كانوا قادرين على أن يأتوا بمثله . وقام الباحث المدقق ابن الراوندى فألف كتابا طعن فيه على القرآن طعنا شديدا ولكن يد الظلم امتدت الى الرجل فأهلكته فذهب ضحية البحث العلمى ولقد تصدى لمعارضة القرآن غير واحد من الباحثين منهم المتنبي فى كتاب لم تسعدنا الأيام برؤيته والمعرى فى كتابه رسالة الغفران .

الحالة الفكرية

إنه وان كانت الامبراطورية العربية قد انقسمت الى دويلات صغيرة ، الا أن هذه الدول قد تعاونت على قيام نهضة عظيمة لا مثيل لها في تاريخ المسلمين . والدول التى ساهمت فى قيام تلك النهضة هى الدولة المروانيه بالاندلس والدولة الفاطمية بمصر والدولة الحمدانية فى حلب والموصل والدولة البويهية فى العراق وايران والدولة الزيارية فى طبرستان والغزنوية في أفغانستان وشمال الهند والدولة السامانية فى تركستان . وتبارى ملوك المسلمين وأمراؤهم ووزراؤهم وعظماؤهم فى كل مكان وفى كل مصر فى تقريب العلماء والشعراء والأدباء وتشجيع كل من يشتغل بالعلم بغض النظر عن عقيدته أو جنسيته فاشترك الديلم والترك والفرس واليونان فى إشعال نيران تلك الحركة العلمية وظهر العلماء والشعراء فى بلدان متعددة وأمصار كثيرة . وأنشئت المكاتب الكبرى التى تحوى آلاف الكتب فى بلاد الأندلس ومصر وبخارى وتنافس الناس فى اقتناء المؤلفات حتى إنك لا تجد عظيما من

العظماء الا وفى داره مكتبة حوت كثيرا من المجلدات الادبية والتاريخية والدواوين الشعرية .

ويلاحظ الباحث فى تاريخ ذلك العصر أن ملوك المسلمين كانوا على درجة عظيمة من الثقافة . وقلما نظفر بملك لم ينظم شعرا ومن لم ينظمه فقد كان يحفل به وبقائليه .

فاشتهر من آل بويه عضد الدولة وكان هذا يميل الى الشعر ميلا عظيما ويجزل صلة من يفد عليه من الشعراء فقصده المتنبي والسلامى وغيرهما من شعراء عصره .

وكان هو نفسه يقول الشعر وله قصيدة جاء فيها .

ليس شرب الكاس الا فى المطر وغناء من جوار فى السحر
غانيات سالبات للنهى ناعمات فى تضاعيف الوتر

وكان عز الدولة بختيار يقول الشعر كذلك ومن نظمه قوله

فياحبذا روضتنا نرجس تحيى الندامى بريحانها
شربنا عليها كاحداقنا عقارا بكاس كاجفانها
ومنا من السكر مابيننا نجر ريطا كقضبانها

***

ثم ان ملوك بويه كانوا يختارون وزراؤهم وكتابهم وعمالهم ممن

ضربوا بسهم وافر فى الأدب . فركن الدولة فى ايران استوزر بن العميد الكاتب العالم المشهور الذى يقول فيه المتنبي

من مبلغ الأعراب أنى بعدهم ... شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كانما ... رد الاله نفوسهم والأعصرا

وبهاء الدولة فى العراق استوزر سابور ابن اردشير فأنشأ هذا الوزير مكتبة عظيمة جعل دخولها مباحا لكل أحد . وممز الدولة بن بويه استوزر الحسن المهابي وكان هذا شاعرا أديبا .

على أن أكثر الوزراء تأثيرا فى هذه النهضة هو الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة . وقد ذكره صاحب يتيمة الدهر فقال « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العلم والأدب » ثم قال « وكانت أيامه للعلماء والادباء والشعراء . وحضرته محط رحالهم ومترع آمالهم . وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم » ثم قال « ولما كان نادرة عطارد فى البلاغة وواسطة عقد الدهر فى السماحة جلب اليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل وقوال فصل . وصارت حضرته مشرطا لروائع الكلام وبدائع الافهام وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . فبلغ من البلاغة ما يعد فى السحر

ويكاد يدخل فى حد الأعجاز » .

ومن الشعراء الذين وفدوا عليه السلامي والمأمونى والبديهي والوسيمي والزعفرانى والضبي والحسن بن عبد العزيز الجرجانى وأبو محمد الخازن وأبو الفضل الهمذانى وأبو العلاء الاسدى وأبو طالب المأمونى . ومدحه مكاتبة الشريف الرضى كما رثاه لما مات بقصيدة تعد آية فى قوة الأسلوب ومتانة التركيب .

* * *

وما يقال فى البويهيين يقال فى الحمدانيين لا سيما سيف الدولة ممدوح المتنبي . فقد كان هذا أديبا شاعرا . ومن أمثلة نظمه قوله

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفي أجفانه سنة الغمض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا ... على الجود كنا والحواشى على الارض
يطوف بكاسات العقار كانجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض
يطرزها قوس الغمام بأصفر ... على أحمر فى أخضر تحت مبيض
كاذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقد اجتمع ببابه كثير من الشعراء منهم المتنبى وابو فراس الحمدانى والنامى والغاشىء الأصغر وأبو القاسم الزاهى وأبو الفرج البيغاء .

* * *

ليس من الضروري أن نتكلم عن الدول الاسلامية — وما بذله ملوكها من مجهودات صادقة في رفع شأن الأدب — دولة دولة وانما يكفينا أن نقول إن ملوك المسلمين ساروا على وتيرة واحدة في تشجيع الشعراء والعلماء والادباء .

ولئن كنا قد تكلمنا عن الدولتين البويهية والحمدانية وأشرنا الى من نبغ فيها من شعراء أو أدباء فلأن أكثر هؤلاء كان على اتصال تام بالشاعر الكبير الشريف الرضى تدور بينه وبينهم المكاتبات شعرا ونثرا . وقد رثى الشريف أكثرهم بقصائد خالدة .

ولم يقف أمر النهضة عند حد الشعر بل سرى الى جميع العلوم والفنون . واستقرت الكتابة على أسلوب ابتكره ابن العميد . ونضج النقد الشعرى فترتب على هذا ظهور مؤلفات جديدة لم تكن معروفة من قبل مثل كتاب الموازنة بين الطائيين ابى تمام والبحترى للامدى وكتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى ونقد شعر المتنبى للصاحب بن عباد وسرقات المتنبى للحاتمى وكتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى الى غير ذلك من الكتب.

وتقدم التأليف تقدما عظيما فظهرت المعجمات اللغوية مثل مختار الصحاح للجوهرى ومحيط المحيط لابن عباد ووضعت الكتب التاريخية

القيمة مثل كتاب مروج الذهب للمسعودى وتجارب الامم لابن مسكويه كما وضعت الكتب الادبية التى نعتمد عليها عند بحثنا فى الوقت الحاضر مثل يتيمة الدهر للثعالبى والأغانى لأبى الفرج الاصبهانى

ومما علم الجغرافيا نموا محسوسا ومن أشهر من ألفوا فى هذا العلم البلخى والاصطخرى وابن حوقل صاحب كتاب « المسالك والممالك » والمقدسى صاحب كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ». ونالت الجغرافية الفلكية عناية فائقة فانشئت المراصد فى كثير من البلدان واخترعت الاسطرلاب .

وخطي علم الطب خطوة واسعة فى سبيل التقدم ونبغ فيه كثيرون منهم ابن سينا . واهتموا بالصيدلة اهتماما عظيما فكشفوا كثيرا من الأدوية ووضعوا للصيدليات نظاما خاصا . كما أنهم وضعوا علم النبات وبحثوا فى الكيمياء بحوثا يبقي أثرها حتي العصر الحاضر فهم الذين استحضروا حامض النتريك « ماء الفضة » وحامض الكبريتيك « زيت الزاج » وحامض الفيتروهيد روكلوريك « ماء الذهب » وكشفوا البوتاسا وروح النشادر وملحه ونترات الفضة وكلوريد الزئبق «السليمانى » والراسب الأحمر « أكسيد الزئبق » وغير ذلك مما لا يسمح المقام بذكره .

ونضجت البحوث الفلسفية وكثر المشتغلون بهذا العلم . وظهرت

جمعية « اخوان الصفا » وكان أعضاؤها يلتئمون سرا ويبحثون فى الفلسفة على اختلاف أنواعها . وعرفت نظرية التطور وأصل الأنسان ولكنها لم تكن مرتبة ولا منظمة ولا معززة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة كما هى عليه اليوم وذلك لضعف وسائل البحث العلمى .

وارتقت الموسيقى رقيا عظيما ونبغ فيها كثيرون واخترع الفارابى القانون كما اجتهد غيره فى ادخال تحسين كبير على الآلات الموسيقية التى ورثوها عن أسلافهم .

وللعرب فضل كبير على الرياضيات فهم الذين وضعوا علم الجبر وابتكروا فى الهندسة كثيرا .

ولقد ظهرت فى هذا العصر علوم لم تكن معروفة من قبل مثل علم التدبير المنزلى وعلم السياسة وعلم الاقتصاد السياسى وعلم العمران وفن البناء والحرب وعلم الاجتماع . ووضعت كتب فى الرقص والغناء والطهى . ونضج علم التصوف وكثر النحويون فظهر ابن جنى وابن خالويه . وتقدم الخط تقدما مدهشا على يد ابن مقلة .

فعصر الشريف الرضي أو القرن الرابع الهجرى هو العصر الذهبي للحركه الفكرية .

٠٠٠

الشعر

ظفر الشعر فى هذا العصر ظفرة واسعة وكثر عدد الشعراء كثرة لا مثيل لها فى تاريخ الأدب العربى . ولقد امتاز هؤلاء الشعراء عن سبقهم باطلاعهم على فلسفة اليونان والهنود والفرس وغيرهم فتمثلوا بأبطالهم. انظر الى المتنبي حين يمدح ابن العميد بقوله .

من مبلغ الأعراب أنى بعدهم شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وحكمت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كانما رد الاله نفوسهم والاعصرا

وكان من نتيجة اطلاع هؤلاء الشعراء على الكتب الفلسفية أنهم تركوا مذهب من تقدمهم من حيث العناية بالألفاظ والأساليب . وقالوا الشعر حسبما تجود به القريحة ويوحيه الخاطر فأتى قولهم ولا أثر للتكلف فيه . وفى طليعة الشعراء الذين سلكوا هذا المسلك المتنبى والمعري . فقد نظما فى الفلسفة على اختلاف أنواعها والحكمة ولا سيما المعرى فأنه أفرد للشعر الفلسفى ديوانا خاصا . ومثال ذلك قوله

غلوت مريض العقل والدين فالفنى ... لتسمع أنباء الامور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ... ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح
ولا بيض أمات أرادت صريحه ... لأطفالها دون الغوانى الصرائح
ولا تفجعن الطير وهي غوافل ... بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له ... كوانسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كي يكون لغيرها ... ولا جمعته للندى والمنائح

* * *

ويلاحظ الباحث ورود كثير من المعانى الطبية فى أقوال فريق من الشعراء ومثال ذلك قول ابى الفتح البستى

ان الجهول تضرنى أخلاقه ... ضرر السهال لمن به استسقاء

وقول المتنبى

اعيدها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وظهرت فيه المعانى الصوفية والفقهية لظهور التصوف وشيوعه واشتغال أصحابه بالشعر ومثال ذلك قول أبى الفتح البستى

عليك بمطبوخ النبيذ فأنه ... حلال اذا لم يخطف العقل والفهما
ودع قول من قد قال ان قليله ... معين على الاسكار فاستويا حكما

وقوله

زفت إليك لنا عرائس أربع ففضضتها بالسمع وهى قصائد
فابعث الى مهورهن يأسرها ان النكاح بغير مهر فاسد

كما ظهرت فيه كثير من المعانى التى لا يدركها الا من له إلمام بعلم الفلك.

ومثال ذلك قول أبى الفتح البستى

قد غض من أملى أنى أرى عملى أقوى من المشترى فى أول الحمل
وأننى راحل عما أحاوله كأننى استدر الحظ من زحل

...

وظهرت فيه أبواب جديدة اقتضاها التبسط فى الحضارة والتوسع فى أسباب الرخاء فأفردوا أبوابا خاصة للأخوانيات والعتاب وشكوى الدهر والشيب والزهد والمداعبات والسلطانيات والمقارضات . ومن بين هذه الأشياء ما كان معروفا قبل عصر الشريف الرضى ولكنه في هذا العصر كثر ونما نموا ظاهرا . فالاخوانيات كقول ابى فراس

حللت من المجد أعلي مكان وبلغك الله أقصى الامانى
فأنك لا عدمتك العلا أخ لا كأخوة هذا الزمان
كسوت إخوتنا بالصفا ء كما كسبت بالكلام المعانى

وقوله : لم أؤاخذك بالجفاء لانى واثق منك بالوداد الصريح
فجميل العدو غير جميل وقبيح الصديق غير قبيح

ومن أمثلة العتاب قول أبي فراس

قد كنت عدتي التي أسطو بها ويدي اذا اشتد الزمان وساعدي
فرميت منك بغير ما أملته والمرء يشرق بالزلال البارد
فصبرت كالولد التقي لبره أغضى على ألم لضرب الوالد

وكان الشعراء يجتمعون معا ويتقارضون الشعر بمعنى أن أحدهم يرتجل الشطر الاول فينبري شاعر آخر ويرتجل الشطر الثاني ويستمران على هذا حتى يقولا عدة أبيات وهذا النوع هو المقارضات الذي ذكرناها سالفا .

والمداعبات كقول الشاعر

أبا جعفر هل فضضت الصدف وهل اذا رميت أصبت الهدف
وهل جئت ليلا بلا حشمة اهول السرى سدفا في سدف

ولقد أجاد أهل هذا العصر الوصف وتوسعوا فيه فوصفوا القصور والحدائق والبساتين والازهار والرياحين والربيع والشتاء والخريف والصيف والبرك والفوارات وأنواع الفواكه والثمار وأدوات الكتابة وآلات اللهو والطرب وبالجملة فانهم لم يدعوا شيئا الا وصفوه . وممن أجادوا في الوصف المتنبي ومن أمثلة ذلك قوله

يطأ الثرى مترفقا من تيهه فكأنه آس يجس عليلا
ويرد غفرته الى يافوخه حتى تصير لرأسه اكليلا

وتظنه مما تزجر نفسه عنها بشدة غيظه وشغولا

والمأمونى . قال يصف المقراض

وصاحبين انتقلا على الهوي واعتنقا
وأقسما بالود والا خلاص أن لا افترقا
خمرهما أزهر كل نجم به قد وثقا

ويرى الباحث عن الشعر في هذا العصر مبالغة الشعراء في المدح مبالغة خرجت به الي حد المستحيل ومثل ذلك قول المتنبى

لو كان علمك بالاله مقسما في الناس ما بعث الاله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل ال توراة والفرقان والانجيلا

وقوله

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس طارز سيفه في يوم معركة لاعيى عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فصار المالمون مجوسا
يا من نلوذ من الزمان بظله حقا ونطرد باسمه ابليسا

ونظير المتنبى فى الشرق ابن هانىء الاندلسي المعروف بمتنبى الغرب. قال

ما شئت لا ماشاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الأحبار والأخبار

وقال من قصيدة أخرى

وورثته البرهان والتبيان والـ فرقان والتوراة والانجيلا
وعلمت من مكنون علم الله ما لم يؤت جبريلا وميكائيلا
لو كنت آونة نبيا مرسلا نشرت بمبعثك القرون الاولي
أو كنت نوحا منذرا في قومه ما زادهم بدعائه تضليلا

ولقد أفردوا للمجون بابا خاصا وأكثروا من ذكر العورات كما أكثروا من ذكر ما تشمئز منه النفس ويتقيأ من سماعه الانسان . وممن اشتهر بذلك ابن سكرة الهاشمي واحمد ابن الحجاج . ولقد أوردنا شيئا من هذا الشعر عند الحديث عن الحالة الاجتماعية فليرجع اليه القارىء ان شاء .

الشعراء

إن المرء ليدهش دهشة عظيمة من كثرة الشعراء الذين ظهروا فى ذلك العصر حتى ليخيل اليه وهو يبحث فى أمهات كتب الأدب أن معظم الناس فى هذا القرن كانوا يقولون الشعر.

ولقد عرف الجمهور من هؤلاء الشعراء المتنبى والمعرى وأبا فراس الحمدانى وصاحبنا الشريف الرضى وابن هانئ الأندلسى ومهيار الديلمى. ولو لم يظهر غير هؤلاء لكفى دولة الشعر فخرا. ولكن هناك شعراء آخرون ضربوا بسهم وافر فى الشعر واجادوا القول وبلغوا فيه شأوا بعيدا إلا أن الأيام عدت على دواوينهم فذهبت بها ولم يصلنا من شعرهم إلا قصائد قليلة. ومن بين هؤلاء الشعراء المأمونى وهو من ذرية المأمون الخليفة العباسى كان على حد قول الثعالبى فياض الخاطر بشعر بديع الصنعة. قال يصف الحمام

وبيت كأحشاء المحب دخلته ... ومالى ثياب فيه غير إهابى
أرى محرما فيه وليس بكعبة ... فما ساع إلا فيه خلع ثيابى
بماء كدمع الصب فى حر قلبه ... إذا آذنت أحبابه بذهاب

توهمت فيه قطعة من جهنم ولكنها من غير مس عقاب

والسرى الرفاء الذى ولد بالموصل ونشأ بها . وابتدأ ينظم الشعر حتى أجاده فقصد سيف الدولة ومدحه وأقام عنده مدة طويلة . وكان السرى شاعرا مطبوعا يمتاز شعره بعذوبة الألفاظ ومتانة الأسلوب

قال يتشوق إلى الموصل ونواحيها وهو بحلب

أهل صبوتنا دعاء مشوق يرتاح منك إلى الهوى المدموق

هل أطرقن العمر بين عصابة سلكوا إلى اللذات كل طريق

أم هل أرى القصر المنيف معصما برداه غيم كارداه رقيق

وقلائد الدير التى لولا النوى لم أرمها بقلى ولا بعقوق

***

ومن الشعراء المقلقين الذين لا يعرف الجمهور عنهم شيئا عبد الرحمن ابن الفضل الشيرازى وهو صديق حميم للشريف الرضى .

وابن نباته السعدى وهو كما وصفه صاحب يتيمة الدهر (من فحول شعراء العصر وأحادهم وصدور مجيديهم وأفرادهم الذين أخذوا برقاب القوافى وملكوا المعانى وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام مستمر الانظام)

قال من قصيدة فى شكوى الزمان

وما الفقر إلا للمذلة صاحب وما الناس إلا للغنى صديق

وأصغر عيب فى زمانك انه به العلم جهل والعفاف فسوق

وكيف يصير الحر فيه بمطلب وما فيه شىء بالسرور حقيق

***

وابو الحسن محمد ابن عبد الله السلامي الذي ولد ببغداد ونشأ بها وأقبل على أقوال المتقدمين بشغف زائد حتى أخذ منها بقسط وافر. ثم شرع بنظم الشعر وهو في العاشرة من عمره. رحل إلى الموصل فوجد بها عثمان الخالدي وأبا الفرج الببغاء وأبا الحسين التلعفري وغيرهم من شيوخ الشعراء. وقامت بين السلامي والتلعفري عداوة شديدة حتى أن الاول هجا الثاني بقصائد كثيرة منها

يا شاعرا بسقوطه لم يشعر ... ما كنت أول طامع لم يظفر
لو كنت تعرف والدا تسمو به ... لم تنتسب ضعة الى تلعفر
تاه ابن بائعة الفسوق على الورى ... بقذال صفعان ونكهة أبخر
وبلادة في الشعر تشهد أنه ... تيس ولو نصرت بطبع البحتري

***

ومن الشعراء الذين يهمنا ذكرهم في هذا المقام مهيار الديلمي وقد كان مجوسيا فأسلم على يد الشريف الرضي وعليه تخرج في نظم الشعر. ولقد كان مهيار يحسن اختيار الألفاظ انقادت له القوافي وسلست له فعدد منها ما شاء أن يقول فأطال وأجاد وأحسن. وبالجملة فأن شعره من النوع الموسيقي الذي يرقص الانسان ويشنف الآذان فهو شعر غنائي. ومن قوله قصيدته التي يرثي فيها استاذه الشريف الرضي

من جب غارب هاشم وسنامها ... ولوى لؤيا فاستزل مقامها

وغزا قريشا بالبطاح فلفها ... بيد فقوض عزمها وخيامها
وأناخ في مضر بكلكل خفنه ... يستام واحتملت له وما امها
ومنها : بكر النعي من الرضى بعالك ... غاياتها متعود إقدامها
كلح الصباح بموته من ليلة ... نقضت على وجه الصباح ظلامها
صدع الحسام صفاة آل محمد ... صدع الرداء به وحل نظامها
بالفارس العلوي شق غبارها ... والناطق العربي شق كلامها

***

وهنالك شعراء لا يحصيهم العد منهم ابو الفتح البستي الكاتب القدير والشاعر المطبوع . والناشيء الأصغر . والنامي الذي كان من خواص شعراء سيف الدولة وهو عنده تلو المتنبي في المنزلة والمرتبة ولقد كان من سوء حظ الادب العربي أن ديوان هذا الشاعر الكبير قد فقد ولم يبق منه نظمه إلا النذر اليسير . ومن الشعراء المجيدين ابو الفرج عبد الواحد البغاء واحمد ابن دراج الأندلسي والتهامي الشاعر المعروف والميكالي والزاهي وابو الفرج الوأواء وابو الفرج الكاتب العجلي وابو الفتح ابن كشاجم وغير هؤلاء كثيرون .

الكتابة

لعل من أحب الأشياء إلى أن أحدث القارىء عن الكتابة في عصر الشريف الرضي فالحديث عنها ممتع شيق يحدث في النفس شيئا من الغبطة والنشاط ويغري الباحث بالاستمرار في البحث .

فأذا أخذت كتابا من الكتب الأدبية أو العلمية التي وضعت في ذلك العصر وجدت المؤلف يبدأ المقدمة بالبسملة ثم يتبعها بالحمدلة ثم بالصلاة على النبي ويختمها بجملة يحسن الختام بها مثل « وما توفيقي إلا بالله » أو « وحسبي الله ونعم الوكيل » أو غير ذلك . ومن الغريب أن هذه السنة التي سنها كتاب القرن الرابع بقيت حتى العصر الحاضر. فكتاب اليوم إلا أقلهم يقدمون مؤلفاتهم بنفس العبارات التي استعملها كتاب عصر الشريف . وللازهريين ـ قطعت رؤوسهم ـ غرام شديد بذكر البسملة وملحقاتها والأكثار من الصلاة على النبي وآله بعبارات مصجعة. وهذا إمعان في البرود وتعمق في الجمود لا يستسيغه القرن العشرون الذي نفر من عمائمهم الكبيرة وتألم من جبهم وقفاطينهم الفضفاضة . . . .

دعنا من الأزهريين وسقيم معتقداتهم وعقيم مؤلفاتهم وعليل

تصوراتهم فالوقت أثمن من أن يصرف على هذا الوجه ولننظر إلى أسلوب الكتابة في القرن الرابع الهجري وهو الموضوع الذي نحن بصدده. ويحسن بنا أن نقسم الحديث إلى قسمين. فنتناول في القسم الأول الحديث عن أسلوب الترسل وهو المعروف بالنثر الفني ونتناول في القسم الثاني الأسلوب العلمي.

أما النثر الفني فهو الرسائل التي تصدر من الرؤساء إلى مرؤوسيهم أو التي يتبادلها الأصدقاء والخلان وما يدخل تحت هذا النوع المقالات المعروفة بالمقامات مثل مقامات الهمذاني. وإمام كتاب النثر الفني في ذلك العصر ابن العميد الذي وضع طريقة خاصة للكتابة الفنية اشتهرت في جميع الأقطار الناطقة بالضاد وسار ذكرها بين الورى فاتبعها كل كاتب واحتذاها كل ناشيء. وتمتاز هذه الطريقة بأشياء كثيرة منها «السجع» الذي أصبح شرطا من شروط الكتابة الفنية. وهو نتيجة من نتائج الانغماس في الحضارة والمدنية. فهو نوع من أنواع التأنق في الكتابة والتأنق أليف لكل من تمتع بالجاه والثروة وتوفرت لديه أسباب السعادة. والسجع إذا اتقنت صناعته أكسب المعنى قوة وروعة وهو قديم في اللغة ورد في القرآن والحديث. وقد لاحظنا أن بلغاء الكتاب في القرن الرابع رغبوا فيه وتسابقوا إليه. لكن بعض معاصريهم من أدعياء الفن - ولكل فن أدعياء - كلفوا به عن غير مقدرة عليه فجاء أسلوبهم باردا متكلفا تظهر عليه بوضوح وجلاء دلائل التصنع وعلامات إجهاد

القريحة .

ومن الأشياء التى امتاز بها النثر الفنى فى عصر الشريف الرضى كثرة الجناس والبديع . والجناس أو البديع يكسب العبارة رونقا ولا سيما مع السجع فقول ابى بكر الخوارزمى فى كتابه إلى نائب الوزير ابن عباد « كتبت إلى الاستاذ معاتبا مرة . ومصطبحا كرة . فما وجدت للعتاب أعتابا ولا قرأت عن الكتاب جوابا . وليت شعرى ما الذى منعه عن صلة لا تضره وتنفعنى وعن تواضع لا يضعه ويرفعنى . » لو جعله مرسلا بسيطا لم يكن له ذلك الوقع فى النفس :

***

ولقد أكثر الكتاب من الاستشهاد بالأشعار فى اثناء مراسلاتهم ومثال ذلك قول الصاحب بن عباد يصف فصلا من كتب ابن العميد قال « فصل رأيته فصيح الاشارة لطيف العبارة .

اذا اختصر المعنى فغربة حائم وإن رام إسهابا اتى الفيض بالمد

وتفنن آخرون بجعل الترصيع شطرا شطرا كقول الهمزانى من رسالة إلى الخوارزمى .

إنا لقرب دار الاستاذ (كما طرب النشوان مالت به الخمر)
ومن الارتياح للقائه (كما انتفض العصفور بلله القطر)

***

ثم إن الرسائل قد تفرعت فى ذلك العصر كما تفرع الشعر فصارت تقسم

إلى رسائل التهنئة والتعزية والمديح والرثاء والاخوانيات والسلطانيات وغير ذلك . ويلاحظ الباحث في هذه الرسائل كثرة ورود الامثال والحكم والاشارة إلى الحوادث التاريخية أو العلمية التي تحتاج إلى الشرح والتفسير .

بلغاء الكتاب

سعدت الكتابة في هذا العصر كما سعد الشعر فتعاطاها الوزراء والأمراء والعظماء فأعلوا مكانها ورفعوا شأنها وبلغوا بها شأوا بعيدا في القوة والمتانة . وتكاثر المنشؤون تكاثر الشعراء وانتشروا في الاقطار والامصار. وربما كان السبب في ذلك يرجع إلى ملوك المسلمين الذين كانوا يتخذون وزراءهم وحجابهم ممن لهم قدم راسخة في الكتابة . فكان الطامعون في المناصب الكبيرة — وما أكثرهم — يجتهدون في اتقان فن الانشاء . فمن اتقنه وبرع فيه وصل الى غايته وظفر بأمنيته ونال منصبا حكوميا رفيعا .

***

ومن بين هؤلاء الكتاب ابن العميد وقد سبقت الأشارة إليه وهو كما قال عنه الثعالبي يضرب به المثل في البلاغة وينتهى إليه في الأشارة بالفصاحة والبراعة مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلامتها إلى براعة المعاني ونفاستها . وقد كان يقال (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) . وزر لركن الدولة ابن بويه وقد اجتمع ببابه عدد عظيم من

الشعراء والأدباء والكتاب . وكان فوق براعته فى فن الكتابة ملما بشىء كثير من فلسفة اليونان والفرس والهنود وبغير الفلسفة من العلوم التى عرفها العرب فى عصره . وخلفه ابنه ابو الفتح ذو الكفايتين فكان كاتبا وشاعرا .

***

والصاحب اسماعيل ابن عباد وفيه يقول الثعالبى «ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العلم والأدب ، وجلالة شأنه فى الجود والكرم . وتفرده بغايات المحاسن وجمعه أشتات المفاخر (ولقد كان الصاحب محط آمال الشعراء والأدباء فقصده خلق كثير منهم نالوا تشجيعا عظيما فمدحوه بقصائد رائعة وكانت مجالسه حافلة بأهل العلم .

امتاز الصاحب بأسلوب قوى جدا فى الكتابة وبقدرة فائقة على نقد الشعر وتحليله وقد ألف كتابا نقد فيه شعر المتنبى . وكان الصاحب نفسه يقول الشعر وله أقوال كثيرة جرت مجرى الحكم ومثال ذلك قوله « لكل امرىء أمل ولكل وقت عمل » وقوله « ربما كان الامساك عن الأطالة أوضح فى الابانة والدلالة » وقوله « ربما كان الاقرار بالقصور أنطق من لسان الشكور . » وغير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره . ولما مات الصاحب رثاه الشريف الرضى بقصيدة ربت أبياتها على المائة أجاد فيها كل الاجادة وأبدع كل الابداع ومطلعها

أكذا المنون يقطر الأبطالا أكذا الزمان يضعضع الاجبالا ؟

أكذا تصاب الأسد وهي مدلة تحمي الفحول وتغنم الأغيالا
يا طالب المعروف حلق نجمه حط الخمول وعطل الأجيالا
وأقم على يأس فقد ذهب الذي كان الأنام على نداه عيالا
من كان يقري الجهل علما ثاقبا والنقص فضلا والرجاء نوالا

***

وابراهيم بن هلال المعروف بأبي اسحاق الصابي، وهو كما قال عنه صاحب يتيمة الدهر « أوحد العراق في البلاغة ومن به تنتهي المحاسن في الكتابة وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية وفيه يقول أحد شعراء عصره

أصبحت مفتاقا حليف صبابة برسائل الصابي أبي إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ذوب البراعة سلوة العشاق
طورا كمارق النسيم وتارة يحكي لنا الأطواق في الأعناق

وكان الصابي جميل العشرة للمعلمين تكسب بالكتابة في دواوين بغداد . وكان رئيس الكتاب بها ، صدرت عنه نفائس الرسائل وله شعر جميل .

دارت بينه وبين الشريف الرضي مكاتبات كثيرة شعرا و نثرا . ولما مات الصابي رثاه الشريف بقصيدة أظهر فيها من المقدرة والبراعة ما يدهشنا كل الدهشة ويعجبنا كل الاعجاب ويغرينا باعادة هذه القصيدة المرة بعد المرة دون أن نشعر بشيء من الملل أو الضجر . قال

أعلمت من حملوا على الاعواد أرأيت كيف خباضياء النادي؟
جبل هوى لو خر بالبحر اغتدى من وقعه متقاسم الأزباد
كما كنت أعلم قبل وضعك في الثرى أن الثرى يعلو على الأطواد
بعد اليوم لك في الزمان فأنه اقذى العيون وفت في الأعضاد
لا ينفد الدمع الذي يبكي به إن القلوب له من الامداد

وهي طويلة جدا سنوردها في غير هذا المكان

* * *

ولقد ظهر في هذا العصر بديع الزمان الهمذاني والخوارزمي والميكالي والاسفرائيني وابو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي وابو القاسم عبد العزيز بن يوسف وغير هؤلاء كثيرون

* * *

أعطينا القارئ فكرة عن حالة النثر الفني في ذلك العصر وعن أئمته الذين حملوا لواءه ورفعوا شأنه. والآن ننتقل الى الكلام عن الاسلوب العلمي الذي يختلف عن النثر الفني اختلافا كبيرا. فهو خال من السجع والبديع يقصد الكاتب فيه إلى غرضه بأبسط عبارة وأوضح إشارة. وقد ظهرت فيه آثار المنطق فكان الكتاب ينتقدون كل شيء ويبحثون ويدققون في البحث ويحللون ويمحصون ويبنون اقوالهم على ادلة محسوسة وبراهين منطقية يستسيغها العقل وتطمئن اليها النفس. وأشهر هؤلاء الكتاب ابو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني. والثعالبي

صاحب يتيمة الدهر وخاص الخاص . وابن رشيق القيروانى صاحب كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده وهو أجل كتاب ظهر فى هذا الموضوع . والحصرى صاحب كتاب زهر الآداب . ونستطيع أن نضع مع هذا النوع من الكتاب جميع المؤرخين والمشتغلين بالرياضة والطب والفلسفة .

وهناك أسلوب ثالث يسمى بالاسلوب القصصى . وقد عنى أصحابه بجملة قريبا من العامية حتى يستطيع أن يفهمه كل أحد ويقبل على قصصهم العام والخاص ويقتنيها العالم والجاهل ومثال ذلك قصص عنتر وألف ليلة وليلة ورجوع الشيخ إلى صباه .

***

ها نحن قد قدمنا لك أيها القارىء صورة حقيقية عن العصر الذى عاش فيه الشريف الرضى ووصفنا كل ناحية من نواحى هذا العصر بما نعتقد أنه يرضى الحقيقة وحسبنا ذلك وكفى .